

مصر في تاريخ النحو

بقلم السيد أحمد منبيل

لاشك في أن الحضارات العالمية التي تعزبها الانسانية في حاضرها والتي امتدت أعماقها الى فجر التاريخ أو ما يقرب من فجره قد شاركت في بنائها شعوب مختلفة . وأجناس متعددة ولعل ذلك مرده الى أن من أصول هذه الحضارات ما يكاد يكون متعاما مشتركا بين شعوب جمعها أهداف مشتركة سعت جميعها اليها مؤمنة بها راغبة في تحقيقها على نحو ما - والحضارة العربية احدى هذه الحضارات التي أسهمت في بنائها حيلة من هذه الشعوب حتى برزت شخصيتها واضحة قوية ملهمة ومتجددة على مر الأعصر وامتداد الزمن ومهمة البحث العلمى - في نشأة هذه الحضارات وتطورها أن يبرز - في يقظة وأمانة - لا تعرف عصية في الجنس أو الدين أو هذه الشعوب في بناء هذه الحضارة ومقدار ما أدته اليها . والواقع أن هذه الحضارة قد عملت في بنائها شعوب متعددة كان لكل منها ثقافته الخاصة وطابعه المميز وفلسفته المتعمقة الباحثة عن أصول المعرفة الانسانية وصلتها بالوجود وعلاقتها بالله ثم جاء الاسلام فجمع هذه الشعوب وآخى بينها ودفعها الى التماس المعرفة عن طريق صفاء النفس وتهذيب الروح وتنظيم وسائل العيش وتقوية المعنويات الموروثة متى اتفقت في جوهرها وما يدعو اليه الدين الجديد .

ومنذ نزل القرآن على الرسول والعربية قد أصبحت لغة الدين والقرآن استطاعت أن تفهر تلك اللغات التي كانت شائعة في هذه الأقطار فأصبحت لغة الدولة الحاكمة ولغة الشاعر الذي يسجل في شعره أحاسيس نفسه وانفعالاتها كما أصبحت لغة الكاتب والمؤلف والمشرع ومن هنا - كان لا بد من استقرار قواعد هذه اللغة حتى يصبح تعلمها أمرا ميسورا لهذه الشعوب فظهر النحو العربى يقيم الألسنة ويعين على تفهم النص ويقدم للمشرع وسيلة من أنجع الوسائل وأقواها في الاستنباط الفقهي والحق - أن البحث عن أولية النحو

العربي - تعددت فيه الآراء وتباينت في الكشف عنها مسالك النظر وبالرغم من تطور البحث اللغوي - في عصرنا الحاضر تطورا ملحوظا فان هذه المسألة ما تزال موضع جدل بين الدارسين وتظنن لم يدنعه الى اليقين أو ما يشبه أدلة من ماديات التاريخ التي يكشف عنها البحث العلمي المتجدد كل يوم .

وربما كان ذلك - لأن الدارسين وتفوا جهودهم جميعا على محاولة تصنيف اللغات وتقسيمها الى فصائل مستلهمين هذه الكشوف العلمية ما يؤكد نظرهم الى هذا التقسيم وطريقتهم فيه ثم اتجهوا بعد ذلك الى البحث عن نحو هذه اللغات بعد أن تحقق لهم شيء مما جعلوه غاية لدراساتهم من الصلات بين أجناس هذه اللغات وفصائلها ومما سموه بالنحو المقارن Comparative Grammar على نحو ما صنع دارسوا الأدب مما سموه بالأدب المقارن لكن هذا الصنيع لم يحقق لهم الأمل الذي حاولوا الوصول اليه من معرفة نشأة نحو هذه اللغات وكيف تطور ، والنحو العربي أحد هذه الأنحاء التي ما يزال البحث عن أوليتها مجالا واسعاً للقول ، ولا ريب في أن اتساع الدراسة اللغوية ونموها قد يعين على تحديد هذه الأولية ويكشف عن الملابسات التي احتفت بها وبمهد السبيل الى دراسة أوسع مما اعتاد الدارسون العرب أن يقفوا عنده لا يبرحونه الا يسيرا . وقد تعين الرواية التاريخية التي أجمع عليها المؤرخون المنصفون على ما يؤكد القول في هذه النشأة ويلقى عليها بعض النور الذي يحدد معالمها تحديدا أقرب الى الدقة وأبعد عن التردد ... فاذا ما عرضنا لتاريخ الشرق القديم والى فتح الاسكندر له - والى ما كان - من ظهور الفكر اليوناني قويا مشعا ملهما - والى انتشار هذا الفكر في كل مكان من الأرض سعت عليه أقدام هذا الفاتح - عرفنا أن فلاسفة اليونان الذين صحبوا هذا الفاتح في رحلاته قد دهشوا حين رأوا من تقدم الهند في الدرس اللغوي وتعمقهم فيه واصالتهم في البحث عن صفاء التعبير وقوته بل أنهم في تعمقهم قد بحثوا عن الكلمات القديمة والشعرية والكلمات التي تخلفت حياتها عن مسيرة الزمن فانت .

كل ذلك يؤكد الدارسون في غير تحفظ ويدعون في شدة الى دراسة اللغة السنسكريتية . اذ أن في دراستها ما قد يكشف لهم عن معالم الطريق في معرفة

نشأة هذه الدوحة اللغوية التي يسمونها Indo-European . قد يكون للدارسين الغربيين - بعض العذر في الاتجاه الى دراسة هذه اللغة دراسة تاريخية تكشف عن آثارها في لغاتهم الحية التي يتكلمون بها اليوم والتي أصبحت جزءا من كياناتهم الحيوى الذى يعيشون عليه ويلتمسون له القوة ليخلد مع التاريخ أما نحن فلا عذر لنا في أن نقف عند دراسة هذا الجانب وأن نقنع من دراستنا بما نحن فيه وندع أمر ماضينا لسوانا يبحث لنا عنه ويلتمس وحده السبيل اليه .

حقا أن التاريخ الأدبى : وعى بعض الروايات الثالثة على أن العربى في جزيرته كان يحس احساسا قويا ببعض الفروق في التعبيرات التي امتازت بها لغته وقد دارت بين شعرائهم مساجلات حول هذه الخصائص فمن ذلك ما يروونه حول هذا البيت : لنا الجففات الغريلمن في الضحى .. الى آخره . لكن لم يبع هذا التاريخ انهم اتجهوا في باديتهم الى استقرار القواعد الخاصة بهذه اللغة إذ لم تكن ثمة حاجة تدفعهم الى هذا العمل ... فلم يكن العربى محكوما بقواعد أو ملتزما بمنهج خاص في البيان والتعبير وانما كانت له الحرية في إطار لهجة قبيلته الخاصة التي يعيش فيها ومن هنا اختلفت لهجات القبائل ونزل القرآن فأكد هذا الاختلاف أول أمره وأباح الله للعرب أن يقرأوا القرآن على سبعة أحرف على نحو ما يذكره مؤرخو القرآن : وان كانت هذه الاباحة لم يمد لها في العمر الاسنوات يسيرة ثم اقتضت طبيعة الحياة الاسلامية أن يجمع الناس على حرف واحد تأكيدا للوحدة الجامعة بين المسلمين وتوثيقا لعرى الاخاء في الدين والتفكير والعمل بينهم .

والواقع - أن القرآن - بعربيته الأصلية وتمثيله القوى للهجات العربية التي كانت شائعة بين العرب يمثل مرحلة جديدة من مراحل تطور حياة هذه اللغة ... فقد جمع القرآن بين العرب ووجد لغتهم ونمى روابط الاخاء والألفة بين جموعهم كما أنه كان العامل الأول - في جمع كلمة المسلمين مهما تباينت أجناسهم وتعددت ثقافتهم واختلفت مناهجهم في مقومات الفكر والسياسة والاجتماع ... ومن هنا دارت الأبحاث اللغوية كلها حوله .

ويبدو أن هذه الظاهرة لم تكن خاصة بالقرآن وحده بل أنها لا يست حياة الكتب الدينية أو التي اختصها أصحابها بما يقرب من القداسة الدينية على نحو ما يقرره الدارسون لحياة الكتب الدينية القديمة ولا شك أن هناك وجوها من المشابهة بين بعض ظواهر من حياة هذه الكتب - توحى بشيء من الدراسة المقارنة ولو من وجهة نظر التاريخ فقد يمهّد هذا النوع من الدراسة الطريق لمعرفة كيف بدأ الدرس اللغوي عند العرب وتدرج بل قد يعين ذلك على تحديد بواعث وأسباب هذا التطور السريع الباكر في حياة هذه الألوان من الدراسة ولا سبيل إلى هذه الدراسة المقارنة بغير السد التاريخي الذي تتوافر فيه الثقة قهوماً بلغ التظن والحدس فلن يصل إلى شيء من الحق الذي يطمئن إليه قلب الدارس ويرضى عنه عقله وتدعّن له حاسة التاريخ المنصف عنده وإذا كان الأمر على ما قدمت فلنعد إلى التاريخ فهو سند هذه الدراسة وهو صاحب القول الأول والأخير فيها ...

لدينا ثلاث حضارات قدّمة جذبت إليها عناية الدارسين في عصرنا الحاضر منها الحضارة اليونانية إذ أنها الحضارة التي استطاعت أن تقوم مناهج التفكير والتفلسف وأن تجمع إلى ذلك التفكير في ماديات الحياة التي يستقيم بها سيرها على مدى الزمن وهي الحضارة التي كان للأدب فيها نصيب موفور ومنها الحضارة الهندية إذ أنها تشترك مع الحضارة اليونانية في تكوين العقل الأوربي وتوجيه تفكيره وامتداده بوسائل التعبير عن ذاته وثالثتهما الحضارة المصرية القديمة أو بعبارة أشمل حضارة الشرق الأدنى القديم على العموم .

هذه هي الحضارات الثلاث التي ينبغي أن يتجه إليها الدارس ليترك مدى ما تركته من أثر في حاضره الذي يعيش عليه . . ولا شك أن هذه الحضارات الثلاث قد خلفت وراءها كتباً ذات طابعين : طابع أدبي وطابع ديني وقد كان لهذه الكتب أثرها القوي في توجيه أصحابها إلى التفلسف الذي يحاول أن يحل مشكلة أصل الوجود وعلاقته بعلمه الأولى ونحن لا يعنيننا هذا الجانب من هذه الحضارات بقدر ما يعنيننا البحث في طبيعة الكتب الدينية وتاريخها ومدى ما تركته من أثر في معنويات

أصحابها ومقرراتهم في الفكر والاجتماع وما لهذا كله من أثر في مناهج دراساتهم اللغوية باعتبار أن اللغة هي وعاء هذه الحضارات التي خلقتها على الزمن وأبقت أثرها على مر التاريخ وقد يطول بنا عرض الفكرة . . . بما يعيدنا عن القصد الذي إليه أردنا في الحديث عن مصر في تاريخ النحو العربي غير أن مما تقتضي به الأمانة العلمية ان أردنا أن ندل على ما أضافته مصر - إلى هذا البناء الضخم في تاريخ العربية أن نعود إلى القول في نشأة النحو العربي وكيف تدرجت حياته واختلفت مدارسها باختلاف مناهج أصحابها .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الدراسة المقارنة قد تلتق بعض النور على نشأة النحو العربي كما أشرنا أيضا إلى ان اتصال حياة هذا النحو بالقرآن قد تعين على نجاح هذه الدراسات المقارنة . والحق أن البحث المقارن يقتضي أن نعود به إلى أعماق التاريخ لنرى ماذا كان فيه مما يؤدي بنا إلى الهدف الذي نقصده . ويصل بنا إلى الغاية التي نسعى إليها . . . وليس ما نرجوه بدعا نفرد به فلقد أحست الإنسانية في تطورها المعاصر ضرورة هذه الدراسة ومدى نفعها في تعمق الدرس اللغوي واصلته ولقد صور هذا الجانب تصويراً دقيقاً Gespersion⁽¹⁾

اذ يقول ما ترجمته " أن القرن العشرين قد شهد نمواً هائلا وتطورا كبيرا في علم اللغة الذي أبرز كثيرا من الملامح التي كانت مجهولة تماما للقرون الماضية فلقد اتسع أفقه فدرس كثير من اللغات كما وصفت وصفا دقيقا وبعضها درس وان لم يكن له من الآثار الأدبية ما يشجع على دراسته وفي كل مكان عمق النظر في تكوين اللغات وبنائها كما لو كانت موضع دراسة طويلة منذ أمد طويل ولقد صنفت اللغات تصنيفا يذل على التفهم وقوة الوعي بما كان بينها من الصلات الوثيقة المشتركة وفي الوقت ذاته لم يقف العمل اللغوي عند دراسة الصنيع وصفا وتحليلا بل تعداها

Gespersion : Language : Its nature, development and arigin pp 32-33 (1)

إلى الشرح والبيان وإلى تعقب نشأتها وتطورها مع الزمن كلما أذنت بذلك الأسانيد التاريخية وبدلاً من القناعة بهذه الصورة أو بتلك ومتى وأين وجدت ومتى ظهرت واستخدمت فقد انطلق علم اللغة يسأل لماذا أخذت هذه الصيغة ذلك الشكل النهائي ؟ . وهكذا انتقل علم اللغة من مرحلة الوصف إلى مرحلة الشرح والتعليل . والجديد الأصيل الذي امتاز به مطلع القرن العشرين في علم اللغة هو هذه النظرة التاريخية وعلى العموم فإنه يجب أن يقال أن القرن العشرين قد اهتمت بأنه بدأ يطبق التاريخ على الآثار العلمية والأدبية الأخرى أكثر من تطبيقه إياها على الحروب وانهيار الأسر الحاكمة وهكذا انجبه هذا القرن إلى هذه النظرة التاريخية ليكتشف فكرة التطور أو التدرج كما هي متحركة في الكون كله ولقد أنتج هذا كله تغييراً عظيماً في حياة علم اللغة كما أحدث أثره في تاريخ المعارف الأخرى فلم يعد الدارس اللغوي ينظر إلى اللغة اللاتينية مثلاً على أنها شيء عديد بل أنشأ ينظر إلى كل من هذه اللغات على أنها تمر في عملية نسج مستمرة نامية متحركة دائماً التجدد والتغير . هذا هو الاتجاه العام في دراسة اللغات ولكن يبدو أن هناك بواعث أخرى أدت إلى هذا الاتجاه وحملت الدارسين عليه وربما كان للكشف العلمي أثره الأول في هذه الناحية ويزيد ذلك تأكيداً ما يذكره Gespersion تعليلاً لهذا الاتجاه إذ يقول ما ترجمته ” وغالباً ما يقال أن اكتشاف اللغة السنسكريتية كان نقطة التحول في تاريخ علم اللغة وأنه ليجد بعض الحق فيما يقال عن هذا الاكتشاف بالرغم من أننا سوف نرى فيما بعد أن السنسكريتية لم تكن هي بذاتها التي أعطت دارسها النظر الصحيح في جوهر اللغات وعلم اللغة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العبقرية قد أعانت على الأقل الإنسان على أن يضع يديه على الحقائق الأولى حول الصلات القائمة بين اللغات وتطورها حتى وإن لم يعرف السنسكريتية ” هذا ما يراه Gespersion وأن كنا نخالفه أشد الخالفة ونرى أن اكتشاف السنسكريتية قد أدى إلى تطور علم اللغة نفعاً جليلاً بل أنه مهد للباحث الطريق التاريخي الذي مر به تطور هذا العلم منذ بداية التاريخ حتى العصر الذي نعيش فيه . .

وقد التمس "جيسرسون" لنفسه بعض العذر فيما قرره بعد ذلك من أن اكتشاف الهند أو على الأصح اكتشاف معنوياتها جاء متأخرا .

أما نحن فنرى أن الحديث عن الهند هو بداية الطريق في تفسير بعض الظواهر اللغوية التي عرفتها هذه البقعة من الأرض .

المعروف ان للهند كتابا دينيا وأن هذا الكتاب كان له في نفوسهم من التقديس والاحلال ما يصوره أدق تصوير البيروني في كتابه تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة وقد بلغ من تقديمهم إياه أن الذي كان يقوم على تفسيره وتأويل اشاراته طائفة خاصة منهم كما أنهم قالوا باعجازه واختلفوا في تقرير هذا الاعجاز على النحو الذي اختلف عليه العرب في تقرير اعجاز القرآن أهو بالصرفة أم بسواها من خصائص في التظم اقتضت هذا الاعجاز ويبدو أن القول باعجازه كما يقرر ذلك (البيروني) هو الذي نفي هذه الدراسة اللغوية عندهم ونفخ فيها وجعلها أنواعا مختلفة كل منها يخدم ناحية خاصة من نواحي هذا الاعجاز ويبدو أن النحو في تاريخ الكتاب الديني عند الهنود كان أسبق ألوان هذه الدراسات وجودا وأكثرها صلة بهذا الكتاب وأبلغها أثرا فيه فقد أشار الدارسون إلى أن Panini في القرن الخامس قبل الميلاد ترك كتابا في النحو الهندي وان هذا الكتاب امتزجت فيه الدراسات اللغوية بشيء من النظر وهو عمل في طبيعة وجوده وتكوينه يشبه ما عمله سيويه في الكتاب . على ما بين الرجلين من فرق ينبغي أن يكون له حابه في الحكم على صنيعهما .

تلك هي الظروف التي لا بدت واحتكت في نشأة البحث اللغوي عند الهنود وهي ظروف يمكن تركيزها حول البحث في ظاهرة الاعجاز التي امتاز بها الكتاب الديني عندهم بضاف إليها أن كتاب Vede كتاب منظوم وأن الحرص على سلامة نظمه عند القراءة والترتيل الديني اقتضى البحث

عندهم فيما يسمى بالعروض Prosody كما دفع هذا كله الى البحث في أصول وضع المعجم اللغوي الذى يعين مفسر الكتاب ومتأول نصوصه على صحة التأويل وسلامة الاستنباط .

وإذن فقد دارت الدراسات اللغوية عند الهنود حول كتابهم ويبدو أن هذه الظاهرة هي التي دفعت اليونان - الى العناية بكتابهم - على نحو ما صنع الهنود بكتابهم ، ومن هنا بدأت الدراسات اللغوية والفنية تدور كلها أول الأمر حول الالياذة وقد استطاع أن يصور طرفا من هذه العناية Rose (١) وما لا حاجة الى نقله هنا - فقد أشرنا الى جملة منه في بحث غير هذا غير أن عناية اليونان بكتابهم لم تصل الى غاية ما وصلت اليه عند الهنود وذلك لاختلاف طبيعة الكتابين وصلته بأهله ولعل مما يصور ذلك تصويرا قريبا من الدقة ما يذكره كتاب الهند القديمة وحضارتها (٢) إذ يقول أن الهنود ربطوا بين معتقداتهم في تطهير النفس والخلص وبين الفاظ الكتاب وجرسها وعلاقة هذه الأصوات بعضها ببعض .

وقد رأينا أن فكرة الإعجاز وهي صلب الادبية الفنية في حياة الكتاب الدينى هي التي دفعت الى التطور ووجهته ونوعت الدرس اللغوي وعمقته اذ الحق أن اللغة كما يقول Sapir أكبر من أن تكون وسيلة لنقل الفكرة بل انها لباس خفى يلف حول أرواحنا ليعطى صورا من التعبير عنها وهي حينها تؤدي تعبيراً غير عادى نسميها أدبا والفن تعبير ذاتى حتى أننا لانحب أن نشعر أننا مرتبطون بصورة مهما كان قصدنا اليها من قبل والواقع أن امكانيات التعبير الفردى الذاتى غير محدودة واللغة بخاصة احدى هذه الامكانيات المتدفقة الحرة ومع ذلك فان هنالك حدودا حول هذه الحرية وبعضا من الدافع لهذه الوسيلة وفي الفنون الكبيرة يوجد التصوير الدقيق لهذه الحرية المطلقة وفيها بعض الحواجز الصورية المفروضة عن طريق المادة التي يستعملها الفنان كالنقش والرخام

Rose : Hand book of greek mythology pp 5-7 (١)

Ancient India and Indian civilisation . (٢)

الأبيض أو الأسود والبيانو والنغمة وما يشبهها ولكنها مع ذلك لا تخمس وكيفما كان الأمر فانه يوجد هامش غير محدود لهذا الفراغ الحادث بين الانتفاع التام للفنان بالصورة وبين المادة والفنان يستلم دائماً لسלטان المادة وهو يحاول أن يؤاخي بين طبيعتها المبردة وبين فكرته ثم إن هذه المادة تخفى بدقة لأنه لا شيء في تصور الفنان يدل على أن مادة ما موجودة ونحن باستمرار نسبح معه في هذه الوسيلة الفنية كما يسبح السمك في الماء ناسين وجود محيط غريب وكيفما كان الأمر فما أسرع أن يتخطى الفنان قانون وسيلته دون أن يتبين منذ البداية أن هنالك وسيلة ينبغي أن تطاع . واللغة هي وسيلة الأدب كما أن الرخام والطين وسيلة النحات ومن ثم فإن لكل لغة خصائص متميزة ولها أيضاً حدود صورية نظرية وامكانيات أدب ما لن تكون أبداً ذات امكانيات أدب آخر والأدب المصوغ من صورة لغة ومادتها يمتاز بظل ونسج يفتق وقوابله .

والأدب الفنان لا يكاد يحس كيف أعيق أو اعين أو ما قدمته له القوالب الفنية من توجيه ممكن حينما تكون المشكلة في ترجمة عمله الأدبي الى لغة أخرى فان طبيعة هذه القوالب تظهر فجأة ثم إن لكل مادة تأثيراً يقرر أو يحس بداهة بالإشارة الى عبقرية الصورة الكامنة في لغته الخاصة وكل أولئك لا يستطيع نقله دون أن يفقد منه شيء أو يعدل فيه ومن ثم فإن كروثه كان على حق فيما قاله من أن العمل الأدبي لا يستطيع ترجمته ترجمة كاملة تنقل الى القارئ الاجزاء الدفينة واللمحات الأصلية في بناء النص المنقول أو المترجم (1) .

ويبدو أن تلك كانت النظرة العامة أو ما هو منها بسبب عند مفسري النص اللدني ولعل هذا يفسر لنا سر تسمية الجاحظ لعملية التأويل في النص بالترجمة تفصيله لرأيه - فيها - كما يفسر لنا ذلك اضطراب المترجمين أوائل العصر العباسي واختلاف مذاهبهم فيها وحرص بعضهم

على التزام الحرفية أحيانا ظنا منه أن فيها غاية للدقة في التعبير عن الفكرة المقولة ... ويبدو أن هذا الاضطراب في الترجمة مرده إلى أن المترجمين لم تتح لهم الفرصة لدراسة اللغة على النحو الذي أشار إليه Sapir⁽¹⁾ ومن ثم اضطرت بهم السبل فلم يوفقوا فيما ترجموه من الآثار الفلسفية والعلمية . ولعل الجاحظ كان أدق منهم تجربة وأصدق رأيا حين طلب إلى المترجم أن يكون علمه باللغة المنقولة وزان علمه باللغة المنقول إليها . فاللغة اذن بطبيعة تكوينها ووجودها تشتمل على عنصرين أساسيين هما اللفظة المفردة والتركيب ولعل الهنود كانوا من أوائل اللغويين الذين عنوا باللفظة في اهمالها واستعمالها وجرسها واتلاف حروفها وما لهذا كله من أثر في التجربة الأدبية مقدرين أثر التاريخ في حياة اللفظة - ذلك تصوير موجز لما امتازت به حضارة قديمة في البحث اللغوي ، وهو امتياز كان له أثره الواضح في تطور هذا النوع من الدراسة في العالم القديم كما كان باعث هذه الدراسة ومنميا في العصر الحديث ، فهل هذا الامتياز الموجه للنشاط الإنساني في هذه الناحية كان له أثره أيضا في توجيه العرب وتنشيطهم إلى تسمية مثل هذه الدراسة عندهم .

هذه هي القضية

لنعد إلى ما كتبه مؤرخو العرب حول نشأة النحو العربي ، والدوافع التي حملت على التفكير فيه ، والعوامل التي ساعدت على تدرجه بما يسير تقدم الجماعة الإسلامية ، واتساع معارفها وامتداد عمراتها ، وبما يحققه اتصال الدين بالحياة ، يمتكم في سيرها ، ويرشدها في تفاعلها واتصالها بالحضارات المختلفة التي عرفتها هذه الجماعة في فتوحها الممتدة شرقا وغربا ...

لدينا روايات مختلفة يروها جملة صاحب الفهرست وابن الأثير في طبقاته وسواهما من الدارسين ، وهي روايات تدل بجملتها على أن الباحث

Sapir : Language (1)

الأول . . . هذه النشأة حماية القرآن من اللحن وهو اعتبار له دلالة تاريخية ، - من ناحية أن القرآن هو التجربة الأدبية المعجزة التي انتهت إليها حياة العربية وما وراءها من اعتبارات اجتماعية اقتضتها طبيعة التوسع في الفتح الاسلامي وغلبة العربية على ما سواها من اللغات الأخرى وتطلع أهل الأقطار المفتوحة الى البصر باللغة الفاتحة والتمرس بأساليبها وادراك مكائدها في البيان والتعبير - ما وراء ذلك كله فاعتبارات أخرى مكتملة للهدف الأول .

وقد يفسر ذلك التدرج التاريخي للبحث النحوي فقد كان القرآن ذاته مصدرا من مصادر هذا التدرج ونصوصه شواهد تفسر بها الظواهر اللغوية فلما استقرت الدراسة النحوية وانقسمت إلى مذاهب كوفية وبصرية أنشأ أصحاب هذه المذاهب يطبقون ما استنبطوا من قواعد على القرآن وظهر في ذلك كتابان هما معاني القرآن للقراء ومجاز القرآن لأبي عبيده وكلاهما يحاول أن يكون لمذهبه النحوي المكان الأول في فهم النص وتوجيه قراءاته وتأويل ما فيه من اشارات موحية وإبراز أدق ملامح اعجازه ومن هنا كثرت شواهدهم وتعددت بل سمى أبو عبيده بعض خصائص الأسلوب القرآني بأسمائها منها أسلوب الرد حين يعيد القرآن صدر الآية إذا طالت على الرغم من أن الدراسة البيانية لم تكن قد استقرت أصولها وتحدد معالمها .

ويبدو أن فكرة الاتجاه الى القرآن مصدرا من مصادر اللغة ظلت متحركة في البحث اللغوي حتى عصر التحليل الذي أنشأ ينظر الى اللغة نظرة خاصة من نواح ثلاث - من ناحية اللفظة المفردة والجملة وجرم هذه اللفظة وما وراء ذلك كله من تجربة أدبية صميمة وفي سبيل الهدف الأول حاول جهده أن يضبط الفاظ اللغة ضبطا رياضيا . . . واستطاع بهذه الطريقة أن يحدد المستعمل والمهمل وأن يدرك الحس العربي الدقيق في الاستعمال والاختيار وفي الإهمال والتترك وكان كتاب العين الذي نهج فيه هذا النهج والكتاب لم يصل إلينا ولكن يظهر أن كتاب الجوهرة لابن دريد صورة

منه ويظهر أن اشترك الرجلين في نوع خاص من الحياة على ما بينهما
 من فحة الزمن قد جمع بين روحيهما في التأليف ... فقد كان الخليل
 موسيقيا وكان لهذه الموسيقى أثرها في اختراع العروض وكان ابن دريد
 موسيقيا كذلك وقد مات وبجانبه آلات الموسيقى والطرب ... ويظهر
 أن هذه الموسيقى كانت ذات صلة وثقى بعمله في اللغة من ناحية هذه الاعتبارات
 الصوتية التي ينبغي توافرها في أداء العمل الأدبي وطريقة ابن دريد
 في الجمهرة - هي ذات الطريقة التي انتهجها الخليل والتي بصورها
 الرواة الثقة . والواقع أن الخليل عقلية مخترعة وأن البحث عن سر
 اختراعه في هذه الميادين كلها تعوزه الأسانيد التاريخية إذ لا نملك من سلسلة
 نسه غير الخليل بن احمد الفراهيدي الأزري وهي نسبة يلابسها الغموض
 ولعله نفسه كان يعني هذه النسبة فلم يمكن أحدا من معرفتها وعلى الرغم
 من نسبه الى الأزدي وهي قبيلة عربية جنوبية - فأنا نشك في صحتها
 وربما كانت نسبة ولاء وتلك كانت الطريقة المتبعة - بعد الفتح الاسلامي
 وقد نبه الى خطر هذه النسبة ابن خلدون وأنها قد تخفى وراءها كثيرا
 من المعالم التاريخية التي لا ينبغي أن يسو عنها المؤرخ اليقظ ، يضاف
 الى ذلك أن المنهج الذي اتبعه الخليل منهج أقرب الى الرياضة منه الى البحث
 الذي يبدأ بالجزئية وينتهي بالكلية ... بل انه يضع النظرية ويحاول
 تطبيقها ... وهو منهج تشبه المصادر التي بين أيدينا الى أنه منهج هندي
 وأنه أقرب ما يكون الى طبيعة عمل Panini ومن سبقه من المفكرين
 اللغويين فإذا انضم الى ذلك ان البصرة كانت نهر الهند وان الاتصال
 المادى بينهما كان قائما - كان هذا كله مثار تفكير عميق في طبيعة عمل
 الخليل والبواعث الخفية التي وراءه والأسباب الدافعة التي احفنت به ...
 بل ان هذا كله يعين على ان نتلقى قضية تأثير النحو العربي بالنحو اليوناني
 بشيء غير قليل من الاحتياط ان لم ندفع أساس التأثير ونفيه . فان التراث
 اليوناني حتى هذه الفترة لم يكن قد نفذ الى أعماق النحاة ومخالط شعاب
 تفكيرهم . وكتاب سيويوه - وان ظن بعض الدارسين أن تأثره بالتفكير
 اليوناني أمر لاربية فيه - نشك نحن - في هذا التأثير ونرى أنه في حله

صدى قوى للطلعة صاحبه على الخليل بل فيه كثير من تسجيل الآراء والافتكار التي كان ي تلقفها من شيخه. واذا كانت هناك بعض المشابهة بين بعض ما ذكره سيوييه في الكتاب وبعض من التذكير اليوناني فهي مشابهة لاتصل بنا الى القول بالتأثر اذ أنها أفكار عامة منتزعة من واقع الحياة التي يحسها ويألفها الناس والربط بين الزمن والحدث والمتكلم هو أساس المسئولية الأخلاقية التي عاشت عليها الانسانية قبل أن تتعدّد حياتها وتختلف بأهلها مذاهب الحياة وطرائقها ...”

على أن الباحثين من اللغويين - في عصرنا الحاضر - يقررون في يقين جازم أن المنود كانوا أول من عنى بالبحث اللغوي وأن اليونان والروم تأخرت عنايتهما بهذا اللون من الدراسة فيقول Gespersion ص ٢ من كتابه السالف الذكر ما ترجمته ان الأساتذة المبكرين في حياة الدرس اللغوي من ناحية الملاحظة اللغوية والتصنيف كانوا نخاة المنود الأولين ثم أن لغة الترييمات الدينية كانت قد انتهى بها الأمر الى الاهمال غير أن الدين طلب الى أهله أن لا يغيروا من هذه النصوص شيئا وان الرواية الشفوية من جيل الى آخر ينبغي أن تحافظ على قدمية هذه النصوص واحترامها. وقد ساق هذا كله الى تحليل دقيق للأصوات اللغوية كما كان يحرص القوم على أن يحددوا كيفية نطق هذه الأصوات كما قاد هذا كله الى نوع من التحليل البديع للصور النحوية التي صنفت تصنيفا منظما ووضعت في اصطلاحات وان كان يبدو فيها بعض التصنع وهذا الأسلوب العام يختلف تماما عن أصاليب نخاة الغرب وحينما وصلت مؤلفات Ponini بدأت تحدث اليوم أثرها في مؤلفاتهم وظهرت في هذه المؤلفات بعض الاصطلاحات الهندية. غير أن ما يذكره جبرسون عن تأثر نخاة الغرب بالهند وتحديدده بالقرن التاسع عشر لا يزال قابلا للنظر - فان هذا التأثر أو معرفة النحو الهندي - أمر قديم قدم اتصال الحضارتين الهندية واليونانية أيام فتح الاسكند كما اشرنا الى ذلك - في بحث مضى -

ثم يجيء الطبرى بعد صاحبيه القراء وأبي عبيدة بقرن فينتصر في تفسيره للمذهب الكوفي وكثيرا ما يذكر أبا لعبيده بهذه العبارة “ يذكر

بعض مدعى العلم من أهل البصرة " ثم يستقر المذهب البصرى ويذهب الدارسون في تحليل استقراره وغلبته على المذهب الكوفى مذاهب شتى ولم يقدروا - فيما عللوا - ان هذا المذهب صورة أو امتداد لمناهج مستقرة أصيلة في دراسة النحو عرفتها هذه البيئة وتأثرت بها واستجابت لها فتوفرت لانتاجها في النحو كثير من العمق والإصالة والقوة امده بوسائل الحياة الصحية النامية على مأمنيه فيما بعد على أن هذه الحركة غذاها المعزلة الذين خالفوا النظام في قوله بالاعجاز بالصرفة وزدوه الى أصول أدبية على نحو ما سبق اليه المنود من قبل ولم يكن المذهب البصرى في حملته غير تفسير لظواهر لغوية أصيلة بها تم هذا الاعجاز وتبدت للدارس آثاره شاخصة قوية بل أن الطبرى نفسه وهو من أئمة الكوفيين يتبع - فيما يتصل بمسألة الاعجاز طريقة البصريين فليس كل رأى لغوى أو نحوى صالحا لأن يؤخذ به في فهم النص وتوجيه قراءاته بل لا بد من حل النص على أفصح اللهجات وأعمها - وهو هنا يخالف منهج الكوفيين ومن ثم رقص في اصرار ما كان قد استقر عليه الأمر عند علماء القراءات من أن القراءة الصحيحة يكفى في اثبات صحتها موافقتها للعربية ولو بوجه بل شرط أن يكون هذا الوجه أفصح اللغات .

ومنذ أواخر القرن الثالث تميزت معالم البحث البلاغى وكان للمعزلة أثرهم في هذه الناحية فظهرت أبحاث مستقلة في الاعجاز امتزجت فيها أبحاث النحو بالبلاغة غير أن واحدا منهم فطن الى عمل النحو في النظم فقرر أن النظم تتلاف معانى النحو وعرض في هذه السبيل الى معنى المعنى وهو اصطلاح لم نشهده عند من سبقه من دارسى الاعجاز ومعلليه . ثم يأتى السكاكى فيحدث عن النحو في مقدمة كتابه المفتاح لأنه في رأيه المدار الأول الذى تدور حوله الفنية الأصيلة التى تتميز بها العربية وهنا يقدر عبد القادر والسكاكى العامل القردي والجماعى في بناء الأسلوب الأدبى فعلى قدر ما يتوفر لمتيج الأدب من سعة المعرفة ودقة الفهم وحن الذوق يكون أدبه الذى تبرز فيه خصائص هذه اللغة .

ثم تبدأ مرحلة انفصال هذه الدراسة وتخصصها وظهور الموسوعات النحوية ولكنها كلها تقدر صلة هذه الدراسة بالقرآن وحسبك هذه العبارة التي يوردها الزمخشري صدر كتابه المفصل اذ يقول ومن لم يتق الله في تنزيله فاجترأ على تعاطي تاويله وهو غير معرب وركب عمياء وخطب خطب عشواء وانشأت الأقطار الإسلامية تشارك في العمل النحوي فظهر علماء يمثلون هذه الأقطار الى أن ظهر ابن مالك فأحدث في النحر العربي هزة عنيفة بمنظومته المسماه بالألفية وقد توفّر على شرحها أناس كثيرون ولكنها حظيت من العناية المصريين بما لم تحظ به في أي إقليم آخر على أن عمل ابن معطر وهو مصري - هو الذي مهد السبيل الى ظهور الفية ابن مالك .

وهنا كان لمصر أثر خاص في تطور الدراسات النحوية - بل ظهرت فيها مدرسة مستقلة لها أعلامها وأئمتها . والواقع أن البيئة المصرية منذ فجر التاريخ بيئة ملهمة تقدر التراث الانساني وتحرص على سلامته ورعايته وتشارك بما لها من جهد في تجويده وتدرج حياته . في هذه البيئة تطورت حياة التفسير الديني قبل الاسلام ووضعت أصول النظريات التي اجتمعت في تفسيره . كما بدأ فيها الكتاب الديني ذاته يحتكم في الحياة ويوجهها ويدفع بأهلها الى القاس أسباب الخلود - وذلك شأن كتاب الموتى وفيها أيضا تطورت حياة الأدب اليوناني بعد أن نبت به الحياة في مهده الأول . ولقد صور هذا الجانب تصويرا أدنى ما يكون الى الصدق (1) Bowra . اذ يقول مآر حنته "ونحن مديتون في العناية بالأدب اليوناني والمحافظة عليه الى العلماء البيزنطيين الذي درسوه ونشروا ماورثوه منه عن القدماء فمن البيزنطيين وصل هذا الأدب الى غرب أوروبا عن طريق حاسة حارة ودراسيه من رجال عصر النهضة ونحن في الواقع مديتون لهم بأغلب ما نعرفه عن اليونان غير أن عملية النقل والنسخ قد أصابت النص ببعض الاضطراب والفساد وان كان التساخ بعامة ايقاظا مدققين ونحن نقرر بحق أن هذه النصوص التي بين أيدينا ليس بينها وبين النصوص القديمة التي كانت شائعة عند اليونان كبير خلاف .

Bowra : Ancient greek literature p.11 (1)

ولكن هذا المصدر قد أضيف إليه مصدر آخر - في العصر الحديث فان بقايا نصوص مكتوبة على أوراق البردي قد كشف عنها البحث العلمي أخيراً في مصر وبالرغم من أن أغلبها يتألف من وثائق تجارية فان بينهما بقايا لنصوص أدبية خالصة ثم أن الشعر الغنائي الذي أمر به جوستيان أن يحرق كان لا يزال يقرأ - في القرن الأول الميلادي ونحن مدينون لمصر التي حافظت على نصوص الكتاب الأول من كتب Bacchylides Alcaeus Sappo وهذا المصدر بالرغم من فائدته الجليلة ليس قليلاً غير أن مما يؤسف له أنه مجموعة متناثرة يضاف إلى ذلك أن أوراق البردي تنقصها عوامل الزمن وهي بذلك تحتاج إلى براعة فائقة ليانها وتفسيرها وهناك فجوات كثيرة لا يمكن أن يملأها العلماء والدارسون مهما بلغوا من المهارة والدقة ولا شك أن اكتشافها قد غير من وجهة نظرنا إلى هذا إلى الأدب بعامة فقد أضافت شيئاً ما إلى حملة هذا الأدب كما أنها تدل أن مانعوه مما فقد منه قليل .

ذلك هو الدور الذي أدته مصر في خدمة الأدب الوافد عليها من اليونان والتي أحست أن فيه متاعاً للإنسانية فحافظت عليه ووعته من عوادي الزمن ولم تقف عنايتها به عند هذا الجانب بل كان هذا الأدب عاملاً من عوامل النشاط اللغوي عند نحوي الاسكندرية و Gespersion يصور هذا الدور في إيجاز ملح فيقول ما ترجمته (1)

” . . . وفي العصور المتأخرة كانت المدرسة اللغوية في الاسكندرية ذات أهمية خاصة فقد كانت موضوعات أبحاثها اللغوية تدور دائماً حول تفسير وترجمة الشعراء القدامى الذين كانت لغتهم غالباً غير واضحة لا يستطيع فهمها الا بشيء من بذل الجهد وسعة الخيلة . “ وما وراء ذلك من التصاريح اللغوية ومعاني الكلمات فقد كان يشار إليها اشارات يسيرة أما النظر في طبيعة اللغة فلم يزل من عنايتهم الا القليل سواء أكان ذلك عند الاسكندرانيين أم عند الرومان وقد بنى الاشتقاق اللغوي عند أولئك جميعاً في مرحلة الطفولة .

Jespersion : Language .. P 20 (1)

ولم يقف نشاط البيئة المصرية في حفظ التراث الانساني وتقدير الحضارة والعناية بها عند هذا الحد بل ظلت هذه العناية حتى بعد الفتح الاسلامي وليست بنا من حاجق الى ان نتبع تاريخ هذه العناية بيد ان مما تلزم الاشارة اليه ان هذه البيئة اهتمت الشافعي وضع رسالته في أصول الفقه ، هذه الرسالة التي كانت البداية الباكرة في تطور حياة التشريع الاسلامي فيها بعد . كما أن هذه البيئة طورت حياة النحو العربي وتمته وكان للمدرسة المصرية - في هذا المجال أثر ملحوظ - فعمل النحاة والبلاغيون المصريون على تنمية هاتين الدراستين وتوجيههما والاستجابة لما تقضى به حياة البيئة المصرية ويبدو ان سقوط الخلافة في بغداد ٦٥٦ واکرام مصر وقادة العلماء قد حول مجرى هذه الدراسة ونماها . فقد رأينا اذن من جملة هذه النقول ان النحو العربي في صورته واشتقاقاته وتحليله للأصوات اللغوية - كما يبدو في كتاب سيويه قريب من النحو الهندي ان لم يكن منه بسبب قرابة فيها كثير من الأصالة والقوة تباعد بينه وبين الانحاء الأخرى التي يدعيها أو يقرضها بعض مؤرخي النحو على أن المحققين منهم يرون أن كتاب سيويه وما نقل فيه عن الجليل لا يبدو فيه اطلاقا تأثر باليونانية ولا استجابة ظاهرة أو خفية لمنطق أرسطو بل يرون أن أول من مزج النحو بالمناطق - الرمانى وان هذا المزج كان موضع انكار منهم .

وربما كان تأثر النحاة بالأصول أوضح من تأثرهم بالمنطق حتى أن بعضهم حصر علل النحو في أربع وعشرين علة (١) وهى علل بينها وبين العلل الأصولية شبه قوى والقصد منها تعليل الصور النحوية يربطها بأسبابها - وحمل بعضها على بعض على نحو ما كان يصنع الفقهاء والمشرعون . ثم ماذا كان نصيب البيئة المصرية التي سقنا اليك بعض نماذج من إلمامها للعلماء والمفكرين الذين وفدوا عليها في مختلف فترات التاريخ - في هذا البناء الضخم ؟ يقتضى الحكيم على نوع هذه المشاركة ومقدارها دراسة مسائل النحو تفصيلا متدرجة مع الزمن ومباراة في تدرجها العوامل الثقافية والاجتماعية التي وجهت الدراسة

(١) السيوطي : بنية الوعاء ٣٢٦ - ٣٢٧

النحوية في بيئاتها المتعددة ولا يكاد يسعفنا الزمن ويطاوعنا الجهد ان أردنا هذه البراسة وإنما نكتفى منها بذكر بعض الملامح الخاصة التي تدل على أثر البيئة المصرية في توجيه هذه الدراسة أو نقد بعض جوانبها .

لقد قسم النحاة الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وعرفوا الحرف بأنه ما دل على معنى في غيره وجاء ابن النحاس فقال أن الحرف يدل على معنى في نفسه كبقية أنواع الكلمة الأخرى وأن هذا المعنى لا يبرز الا عند التركيب وقد نقل عن السيوطي هذا الرأي في أول جمع الجوامع وجاء على أثرها الدكتور عبد الرحمن ايوب فعزا الرأي الى نفسه في كتابة دراسات نقدية في النحوية - وهو كما ترى رأى مسبق .

وأغلب المصريين ممن اشتركت دراساتهم بين الأصول - والنحو - وهو جمع من طبيعته ان يعمق الدرس النحوي وينميه ويصله بالحياة عند تطبيق النصوص التشريعية عليها وقد كتب الأسنوي (١) كتابة الكواكب الدرية في تزييل الفروع الفقهية على القواعد النحوية . وتظل الفكرة النقدية تراود النحاة المصريين فيحسون الحاجة اليها حين يعمق درسم اياه ويتصلون بماضى اصحابه وآرثهم فقد قالوا ان عثمان ابن عمر المشهور بابن الحاجب كتب كتابة الأمالي - وهو مجلد ضخيم - في غاية التحليق بعضها على آيات وبعضها على مواضع من المفصل ومواضع من كافيته وأشياء ثرية ومصنفته في غاية الحسن وقد خالف النحاة في مواضع واورد عليهم اشكالات والزامات مفحمة يعسر الجواب عنها (٢) .

وقد كان ابو حيان - كثير التعصب على ابن مالك يخطئة أحيانا ويرد عليه بعض آرائه الخاصة في النحو فجاء على أثر على بن سيف الايبارى المصرى وجمع جزءا في الرد على أبي حيان وقد انفرد بعض نحاة مصر بأبحاث دقيقة يبدو فيها الربط الدقيق بين الصورة النحوية والمعنى وقد ترك

(١) بغية النعمة ٣٤٢

(٢) المصدر السابق ٣٢٢

السيكى. أمثالا مفردة تعالج أعنى هذه المسائل وأدقها: ونقل عنها البيوطى
فى الاتقان وعزا نقوله عنها الى أصحابها فها نيل الملا فى العطف بلا
والاختصاص فى تالفوق بين المخلص والاختصاص وكل وما عليه يدلان ويبدأ
الربط فى اعتراض الشرط على الشرط. والتهدى الى معنى التهدى -

تلك هى الروح المصرية فى تناول مسائلها النحو وربطها بالحياة العامة
من نواحيها المختلفة واعتدادهم بالحوال أداة يستفيد منها المشرع والمتناول
للتصوص. وهذا للاتجاه وان كان يبدو أصيلا فى طبيعة البحث النحوى
الا أن المصريين استطاعوا أن يستفيدوا منها فى استهلاك طاقة النص
والاستفادة بها. فى دعم الحياة الدينية والأدبية معا ... بعد أن ركذ البحث
اللغوى ركودا يميل به الى التكرار والاجترار ... وهنا تبرز شخصيته جديرة
بأن نقف عندها وقفة قصيرة . لما امتازت به من تعدد نواحي نشاطها
فى هذه الميادين كلها تلك هى شخصية ابن هشام التى تمثل المدرسة المصرية
فى النحو تمثيلا صادقا ويظهر فى صنعها لون من الاصاله والعمق الذى
هو فى واقع الأمر صدى لهذه البيئة المصرية التى عاش فيها .

ترك ابن هشام كتبا مفردة فى مسائل النحو جميعها كقطر الندى وبل
الصدى وشذور الذهب وأوضح المسالك وآخرها المغنى . والأبحاث الأولى
تعد مقدمة لدراسة مسائل النحو ومحاولة تخريجها مع جمع الآراء المختلفة
التي وعاما الزمن بمثابة لمذاهبه فى البصرة والكوفة وبغداد ثم لما كان
من الأندلس من أثر فى هذه المسائل وتوجيهها . ويظهر أن حياته الرتيبة
التي قضاها فى مصر دارسا ومحققا ثم توسط هذه البيئة بين الشرق من ناحية
والغرب أو الأندلس من ناحية أخرى هى التي ساعدته على أن يصل بين هذه
المذاهب ويعرضها عرضا يسيرا فى صورته دقيقا فى مادته وأسلوبه ولقد كان
آخر أمثاله المغنى وهو بحث مفرد يتناول الكلام عن الأداة أو ماهو فى حكمها
عما يستقيم به الأسلوب الأدبى . وما يحقق لدراسة القدرة على فهمه وتخريجهم
وإذا كان القدماء قد عنوا بهذا الجانب بين الدرس النحوى فقد كانوا يعوزهم
الاستقصاء وجمع الجزئيات المتشابهة أو التي ينتظمها حكم واحد يوسع أفق

الدارس وجمع عليه شعاب الطريق ويفتح له آفاقا من النظر المتجدد في طبيعة التركيب الأدبي وعكسه من معاناة الاستنباط الفقهي - الذي يصله بالحياة العلمية الإسلامية في اقطارها المتعددة ... ولعل هذه الخاصية هي التي فطن إليها ابن خلدون حتى سمي هذا الكتاب بالديوان .

ولا حاجة بنا أن نعرض لجزئيات هذا الكتاب وطريقته فيه - ودقة تناوله لمسائل النحو واستقصاء الأحوال وترجيح بعضها على بعض - في تجربة صادقة وعمق نافذ غير أن صنيعه في كتابه - بعامه - دال على أن النحو العربي في نشأته وتدرجه حتى عصر الرجل محاولات متجددة مثيرة في البحث عن مكامن العبقرية الحية في هذه اللغة .

المراجع العربية

- ابن الأنباري ... : طبقات النحويين
ابن تيمية ... : كتاب الايمان
ابن النديم ... : الفهرست
إسكافي ... : مفتاح العلوم
السوطي ... : بغية الوعاة
عيد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز

المراجع الأوروية

Ancient india and indian civilisation.

Bowra : Ancient greek litt.

Jespersen : Language : Its nature, development and origin.

Sapir Language.

خلاصة البحث

عرضت لنشأة النحو العربي والملايات التي احتفت بها من دينية واجتماعية وأشرت إلى الظفرة التي أصابت هذه النشأة فطورتها تطورا سريعا، وإلى ما كان من أثر للهند فيها مينا ما امتازت به الحضارة الهندية عن نظائرها من الحضارات الأخرى في هذا الجانب، ... وكل أولئك قدمته مهتديا بالطريقة التاريخية التي اتبعها الدارسون في تأريخ الفكر الإنساني منذ القرن التاسع عشر، وظلت أتباع القول في هذه النشأة حتى توزعت الدراسة النحوية أقطار مختلفة ومنها مصر، وهنا تظهر لمصر آثار خاصة في هذا النوع من الدراسة تبدو فيها آثار الربط بين الفكر الإسلامي وبين اللغة كما تبدو فيها أيضا هذه السمة التاريخية في جميع الآراء ومناقشتها بما بين عن عبقرية اللغة في البيان والتعبير .